مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 19 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2023 الصفحات 424- 435

شرح شواهد الأشموني على ألفية ابن مالك للشيخ عبد السلام السلطاني الجزائري

Explanation of Ashmouni evidence on the millennium of Ibn Malik, by Sheikh Abd al-Salam al-Sultani Algerian

أحمد جليد[1]، * حراق بن بريك[2]

[1] جامعة مصطفى اسطمبولي/ معسكر (الجزائر)، ahmed.djlid@univ-mascara.dz

مخبر المناهج النّقديّة المعاصرة وتحليل الخطاب.

[2] جامعة مصطفى اسطمبولي/ معسكر (الجزائر)، harak.benberik@univ-mascara.dz

مخبر المناهج النّقديّة المعاصرة وتحليل الخطاب.

تاريخ الإرسال: 2023/06/25 تاريخ القبول: 2023/11/20

الكلمات المفتاحية:

الشيخ عبد السلام السلطاني؛ الأشموني؛ ألفية ابن مالك؛ الاستشهاد؛ النحو؛

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى التعريف بواحد من علماء الجزائر وهو الشيخ عبد السلام السلطاني، من خلال شرح شواهد الأشموني المسمى "فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك". ويكتسب هذا الشرح أهميته من تعلقه بقيمة شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، فقد كان كتاب الأشموني ومازال يجد من الحظوة والقبول لدى الدارسين والباحثين أكثر ممّا يجده أي شرح آخر للألفية. ومن هنا تتلخص الأسئلة التي يطمح البحث أن يجيب عليها فيما يلي: من هو الشيخ عبد السلام، وما هو منهجه في الشرح، وكيف تبدو شخصيته؟

Keywords:

Sheikh Abd al-Salam al-Sultani, Al-Ashmouni, Ibn Malik's Alfiya, Citation, syntax,

ABSTRACT:

This study aims to introduce one of the Algerian scholars, Sheikh Abd al-Salam al-Sultani, through his explanation of the evidence of Al-Ashmouni called "Fath Al-Malik in explaining the evidence of the path of the traveler." This explanation gains its importance from its attachment to the value of Al-Ashmouni's commentary on Ibn Malik's Alfiya, as Al-Ashmouni's book was and still finds favor and acceptance among scholars and researchers more than any other commentary on Al-Alfiya. Hence, the questions that the study aspires to answer are summarized as follows: Who is Sheikh Abd al-Salam, what is his approach to explanation, and what does his personality look like?

* أحمد جليد

مقدّمة:

تعدّ ألفية ابن مالك من أكثر المؤلفات شهرة وذيوعًا، فقد أقبل عليها العلماء درسا وشرحًا، وانكبّ عليها المحققون تعليقا وتفصيلا، حتى راحت الأجيال تتواصل في الإفادة منها، فحفظوها وراحوا يضعون عليها الشروح والحواشي والتعليقات، حيث أحصى أكثر من باحث هذه الشروح.

يهدف هذا البحث إلى التعريف بواحد من علماء الجزائر وهو الشيخ عبد السلام السلطاني، من خلال شرحه على شواهد الأشموني المسمى "فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك". ويكتسب هذا الشرح أهميته من تعلقه بقيمة شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، وأهميته في الفكر النحوي؛ فقد كان كتاب الأشموني ومازال يجد من الحظوة والقبول لدى الدارسين والباحثين أكثر ممّا يجده أي شرح آخر للألفية.

ومن هنا تتلخص الأسئلة التي يطمح البحث أن يجيب عليها فيما يلي:

من هو الشيخ عبد السلام، وما هو منهجه في الشرح، وكيف تبدو شخصيته؟

وما موقفه من المسائل والقضايا التي تناولها؟

وقد اقتضت طبيعة الموضوع أن يجيء في مقدمة، ومباحث؛ تحدثنا في المبحث الأول عن حياة الشيخ عبد السلام، ثمّ بيّنا سبب تسمية الكتاب بفتح المالك في شرح شواهد منهج السالك، والباعث على هذا العمل، وتوقفنا عند دراسة منهج الشيخ عبد السلام عند النقاط التالية:

طريقته في شرح الشواهد.

شخصيته من خلال الشرح.

موقفه من الاستشهاد بالقرآن الكريم، وموقفه من الاستشهاد بالحديث الشريف، وموقفه من الاستشهاد بالشعر.

ثمّ ذكرنا ما ناله الشيخ عبد السلام من إشادة من الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس، ووصلنا إلى الخاتمة التي ذكرنا فيها أهم النتائج التي انتهى إليها البحث. وقد اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي في محاولة مقاربة هذا الشرح.

1. عبد السلام السلطاني الجزائري:

ينحدر الشيخ عبد السلام السلطاني من أسرة طيبة، فيذكرك بقول الشاعر: "إذا طاب أصل المرء طابت فروعه"، وهذه الأسرة هي أسرة السلطاني، أو أولاد سلطاني، التي تَتَدَيَّرُ نواحي عين التوتة بمنطقة الأوراس.

وقد أنجبت هذه الأسرة عددا من العلماء، كما خرج من أصلاب رجالها وأرحام نسائها عدد من المجاهدين أذاقوا الفرنسيين العلقم، وجرّعوهم الصَّبِرَ، سواء مع المجاهد أحمد باي، أم في ثورة 1916 التي يسميها بعض المؤرخين "انتفاضة أولاد سلطان". ولد الشيخ عبد السلام السلطاني بقرية "البير"، في بلدية أولاد عوف، دائرة عين التوتة، في سنة 1896. وبعدما أتمّ حفظ كتاب الله توجه إلى أحد مراكز العلم وهي الزاوية العثمانية بطولقة، فمكث بها ثلاث

حجج، تلقى فيها ما كتب الله له من معارف دينية ولغوية، ومنها شد الرحال إلى قسنطينة ليلتحق بكتائب الإمام ابن باديس العلمية، ومكث بقسنطينة خمس حجج أُخر.

ولما رأى الإمام ابن باديس في تلميذه ذكاء ونباهة وجّهه تلقاء تونس، فالتحق بها وانضم إلى جامع الزيتونة بعدما أُجْرِيَ عليه امتحان أثبت كفاءته.

وما هي إلا سنتان حتى كان "أَحَدَ أعيان المتطوعين" كما وصفه شيخه بلّحسن النجار، حيث كان هو وزميله الشيخ مبارك الميلي من الحائزين على شهادة التطويع من المرتبة الأولى، فهنّأهما-والشيخ سعيد الزاهري- الشاعر محمد الصالح الجلاّلي بقصيدة جاء فيها:

مبارك وسعيد والسلام بهم قطر أضيم يهنى إذ بهم كفلا
إني لكم – نخبة الأحرار والنّبلا مهنّئٌ من فؤادي شاكرا جذلا
إذ نلتم خطّة التطويع من فئة أئمة قدوة قد سدّدوا الخَلَلا
فالقطر يحمدكم والدين يمنحكم قلائد العز بين الناس إذ جَمَلا
أصبحتم قادة بين العموم لشعب ما له منقذّ إلا الذي كَمُلا

لم يقتصر الفرح بنجاح عبد السلطاني على عائلته؛ بل شاركها فيه الإمام ابن باديس، الذي انتقل إلى قرية "الْبِيرْ" لتهنئة الطالب عبد السلام وأسرته، ومما قاله الإمام ابن باديس آنذاك – 1924- كما سجلته الذاكرة الشعبية لأهل قرية "البير": «هنا كان مقر الحاج أحمد باي، يواصل مقاومته للغزاة الفرنسيين"، ثم قال: "إن هذه الجبال هي معاقل المجاهدين، ومنها يأتي النصر إن شاء الله».

رجع الشيخ عبد السلام إلى الجزائر، ثم التحق بزاوية برّحّال، بلدة دوفانة، غير بعيد عن باتنة، ليبلغ ما تعلمه إلى بني وطنه، ولكن السلطات الفرنسية هناك لم تسترح له، فهو من تلاميذ ابن باديس، وهم ملقّحون ضد "القابلية للاستعمار" وخدمته، فقررت طرده ومنعه من التدريس، فعاد إلى تونس، وعمل مدرسا في عدة أماكن بها حتى أتاه اليقين في سنة 1958، في بلدة الدهماني بولاية الكاف بتونس.

وكان على صلة ببعض قادة الثورة كالمجاهد محمدي السعيد (سي ناصر)، والدكتور التيجاني هدام..

وللشيخ عبد السلام السلطاني عدة إجازات من علماء ذوي مكانة عالية وقيمة سامية مثل محمد الصادق النيفر، وبلّحسن النجار، ومحمد الطاهر بن عاشور.. كما أثنى عليه علماء أجلاء كالإمام ابن باديس، والشيخ علي المغربي، والشيخ أحمد حماني، الذي كتب إلى مؤلف هذا الكتاب الأستاذ لحسن بن علجية رسالة في 1994 يقول له فيها: «فالواجب عليك يا بني إحياء أثره ما استطعت.. لأنه مفخرة من مفاخر الجزائر».

لقد ترك الشيخ عبد السلام السلطاني تراثا علميا قيما، شهد بقيمته أهل العلم، ومن تراثه المنشور كتابه المسمى "تحفة الخليل في حل مشكلة من مختصر خليل" الذي طبع في المطبعة الجزائرية الإسلامية بقسنطينة، وقد أشاد به الإمام ابن باديس، واعتبره "طلاّ لصيّبِ وابلِ علومه الفكرية".

ومن تراثه أيضا كتابه الذي أطار في الآفاق اسمه، ورفع ذكره وهو "شرح شواهد الأشموني، المسمى فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك"، وقد أشادت به مجلة ''الهداية الإسلامية'' بالقاهرة، وهي للإمام محمد الأخضر حسين (من طولقة) الذي صار شيخا للأزهر الشريف.

كما أشاد به العلماء مشرقا ومغربا، ومما قاله الشيخ في مقدمة كتابه هذا:"... إني لم أقصد به خدمة أمير، ولا رَفْعَه لسدة ملك أو أعتاب وزير، وما أرجو به إلا أن أُكْتَب في زمرة خدمة لغة سيدنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لغة أنادي بها ربي حين أدعوه، لغة أفهم بها القرآن حين أتلوه، اللهم إني لا أقصد به إلا وجهك الكريم، ولا أرتمي ببضاعتي إلا على أبواب فضلك العميم".

وللشيخ مشاركات شعرية، من أهمها قصيدته في تأبين شيخه العلامة محمد النخلي القيرواني (1924) وقصيدته في توديع شيخه الإمام ابن باديس في زيارته إلى تونس في سنة 1923.

ومما جاء في هذه القصيدة:

وإني قد بَلَوْتُ بني زمـــاني فلم أر بالفضيلة من أحاطا

عدا عبد الحميد فذاك فردٌ وحيد بالفضيلة قد أحاطا

خبير قد رأى أن السنـايا من الأسفار تُلْتَقَطُ التقاطا

وأنت نِطَاسِيٌّ تبدي لكلٍّ دواءً حسب عاته احتياطا

أمدَّك ربنا بِخَفِيِّ لُطْف لتؤمن خوفـــه ذاك الرباطا

توفي الشيخ عبد السلام السلطاني على إثر وعكة ألمت به في شهر أكتوبر 1958م، ودفن بمقبرة الدهماني، ولاية الكاف بتونس. رحمه الله وأسكنه فسيح جناته[1].

2. تسمية الكتاب:

يرجع الشيخ عبد السلام سبب تسمية الكتاب بفتح المالك في شرح شواهد منهج السالك، حتى «تنثلج به أفئدة السادة المنصفين، وترتمض به أكباد الكشحة المرجفين»[2]، ومع ذلك فإنّه يُقرّ بتواضع على أنّ عمله هذا لا يسلم من عيب أو تقصير، فإنّ الإنسان عرضة للنسيان بلا ريب، مستشهدا بالمثل القائل: لا تعدم الحسناء ذاما، وبيت لأبي تمام:

وَيُسيءُ بِالإِحسانِ ظَنّاً لا كَمَن يأتيك وَ هو بِشِعرِهِ مَفْتُونُ[3]

كما ولم يقصد به خدمة أمير والتقرب منه، ولا رفعة لسُدة ملك أو أعتاب وزير، كل ما كان يرجوه الشّارح أن يكتب في زمرة خدمة لغة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

3. الباعث على الشرح:

يبيّن الشيخ عبد السلام في مقدمة الشرح الدافع إلى هذا العمل، فيعلل سبب إقدامه على شرح شواهد الأشموني، إلى منهج الأشموني نفسه في إيراد الشواهد الكثيرة المتنوعة، رغبة منه في تطبيق الفن على اللغة، ولذا تراه «لا يألو جهدا في إيراد كلام العرب في كل محل، من بين حديثٍ وبيتِ شِعرٍ ومَثَل، حتى كثرت بذلك شواهده كثرة

أَخَالها هي التي حالت دون أن تُشرحَ ومنعت مُغلقها أن يُفتحَ»[4]، ممّا دفع الشيخ عبد السلام إلى محاولة فهم هذه الشواهد، يقول: «كنتُ أيام قراءتي لهذا الشرح كثير الطلب لفهم تلك الأمثال والشواهد، ومعرفة ما لها من الأسباب والموارد، فمهما عثرت على فائدة من ذلك في بطن دفتر إلا نقلتها، وما نثر أحد مشيختي دُرّة تحقيق في مجلسه إلا التقطتها، حتى جمعت من ذلك فرائد، ونظمت منها قلائد، وظلت نتيجتها حينا من الدهر قاصرة عليَّ، وعوائد منفعتها لا تعود إلا إليّ»[5].

وكان والده كثيرا ما يُوعز إليه بتنسيق تلك الشواهد ونشرها، لأنه كان يرى أن مثل هذا العمل لا انقطاع لأجره، ولأنّ الفائدة به أشمل، والثواب عليه أجزل. غير أن الشيخ عبد السلام كان يحجمُ عن ذلك كما يقول: «استصغارًا لمنزلتي عن مقام التأليف والتقييد، واستقصارا لشوطي عن ذلك المدى البعيد، إلى أن جمعني الله تعالى بحاضرة تونس ببعض أهل العلم فذكر لي أنّ الحاجة بالنّاس لشرح هذه الشواهد ماسّه، ولا أحد نراه أعار لذلك حاسّه. فظاهر بقوله ذلك الإيعاز، وتبين حقيقة أن ليس لي عنه محيد ولا مجاز، فحينئذ استخرت الله في الشروع وشمرتُ على ساعد الجدّ مطّرحًا الرّاحة والهجوع»[6].

4. منهج الأشموني في شرح الألفية:

حظ الألفية كبير من الشهرة، إذ حظيت بشروح وتعليقات عديدة، ويرى الشيخ عبد السلام السلطاني أن الناس بعد الإمام ابن مالك «عيال على مؤلفاته، وتُبَعٌ للترتيب الذي نحاه في مصنفاته، وإنّك لترى من إقبال الناس على ألفيته، ما يدلّ بلا ريب على خلوص نيته، فقد شرحها من الأعلام الجماء الغفير، وكتب عليها من الفضلاء خلق كثير، بما لم يقع نظيره لمصنف، ولا اتفق مثله لمؤلف، ولقد وقع الاتفاق من ذوي العلم في سائر الأزمنة والآفاق على أن انتقوا من بين هاتيك الشروح منهج السالك إلى ألفية ابن مالك شرح الشيخ العلامة القدوة المحقق الفهامة أبي الحسن سيدي علي بن محمد الأشموني الملقب نور الدين»[7].

ويمتاز شرح الأشموني عن غيره من الشروح بغزارة مادته العلمية، حتى عُدَّ أوفى كتب النحو جمعا لمذاهب النحاة، وتعليلاتهم وشواهدهم على نمط البسط والتفصيل مع المحافظة على ترتيب المصنف لأبواب الألفية والالتزام بعناوينها، فقد سلك الأشموني في شواهده مسلك السابقين عليه، وممّا يمتاز به شرحه «زيادة الشواهد فيه على المصنفات النحوية زيادة يؤود الطالب حفظها والإحاطة بما تستوجبه المعرفة بها من: قائليها ومما قيلت فيه ومما قيلت فيه»[8].

وكذلك الحال بالنسبة إلى الشيخ عبد السلام السلطاني في شرحه على شواهد الأشموني، فلم يختلف منهجه كثيرا عن منهج الشارح الرامي إلى الشّرح والتفصيل؛ أي أن السّمة الغالبة لصاحب الشرح (عبد السلام) هي متابعة للشارح، إذ التزم بتبويب الشارح للموضوعات والشواهد، وترتيبه لها، ويمكن إيضاح منهج الشيخ عبد السلام في شرحه بالنقاط الآتية:

4-1 طريقته في الشرح:

تقيّد الشيخ عبد السلام في شرحه تقيّدًا تاما بالشواهد والموضوعات الواردة في شرح الأشموني، محافظًا على تبويب الأشموني للمادة العلمية، ويوضّح طريقته قائلا: «وارتأيتُ أنْ يكون الشرح آتيا على ما أورده نور الدين (يقصد الأشموني) من الأبيات والأمثال وكلام سيد البشر، فإنّ للأمثال والحديث حيثية لا تقلّ عن التي للشعر بل هي أكثر، وربّما تعرضتُ لبعض الأمثلة لكلام عليه جيد أحببت أن أنقله، معقبا كل شاهد في الغالب بخمسة فصول دون زائد، حلّ ألفاظه -فإعرابه- فمحلّ الشاهد، فالمعنى، فذكر القائل، مع إتمام الأشطار وما يناسب من المسائل، معتذرا عن سلوك سبيل المبتدئين في فصل الإعراب وعن الإلحاح في شدّة الإيضاح، بأنّي أردتُ أن أدعو إليه سائر الطبقات الجفلى[9]، ولم أختص ذوي النهاية بالنقرى. باذلا الجهد في تصحيح الأنقال التي أوردها، وتقوية الآراء التي اعتمدها. ولا أدّعي التحريف في ألفاظ الأبيات إلا بتصحيح رواية، ولا ردّ قول إلا بتدقيق دراية، وأعتمد في بيان معنى الأبيات على ما يؤخذ من عوائد العرب ومجريات شؤونهم، سائرا على مقتضى أنفاسهم ومقاصدهم مجتنبا ما يسلكه المتأخرون الذين شبت عقولهم وشابت على فهم كلام الشروح والحواشي فيعتبرون المفاهيم ويبدون كل الاحتمالات ويوردون المناقشات، فأدخلوا كلام العرب في هذه الدائرة فتلفيهم يسلطون عليه أفهاما اعتادت أن تولد يؤخذ من كذا كذا ويردّ عليه كذا، ولم تألف خدمة كلام العرب، ولا سرحها أربابها يوما ما مع سوام أفكار الأعراب ساكني المراقب والثنايا»[10]، ومن ذلك ما نجده في الشاهد رقم "449" "باب الاستثناء":

وَمَا الدَّهرُ إِلّا لَيلَةٌ وَنَهَارُها وَإِلّا طُلوعُ الشَّمسِ ثُمَّ غِيارُها

(اللغة) الدّهر الزمان، وغِيار الشّمس بكسر الغين المعجمة مصدر بمعنى غيابها، يقال غارت الشمس تغور غُؤُورًا وغيارا إذا غربت، قال القالي: الذي يقول غارت الشمس، كأنه يقول سقطت في الغور، وهو المنخفض من الأرض.

(الإعراب) وما: الواو عاطفة، ما نافية، وروي هل بدلها، ولأجل ذا قال بعضهم إن ما للاستفهام، والدهر مبتدأ، وإلا أداة استثناء ملغاة، وليلة خبر المبتدأ المرفوع، ونهارها معطوف بالواو عليه، والضمير مضاف إليه عائد على ليلة، وإلا الواو عاطفة وإلا للتوكيد ملغاة وطلوع معطوف على ليلة والشمس مضاف إليه إضافة المصدر لفاعله، وثم للعطف، وغيارها معطوف على طلوع، والضمير مضاف إليه عائد على الشمس.

(والشاهد) في إلغاء إلا الثانية وعدم اعتبارها، فكأنه قال وطلوع الشمس ثم غيارها.

(المعنى) ذكر أن الدهر ما هو إلا الليل والنهار وطلوع الشمس وغروبها، وقوله وإلا طلوع عطفه على ما قبله من باب عطف السبب على المسبب. (والبيت) لأبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يره[11].

هذا النص يوضّح إلى حد كبير طريقة الشيخ عبد السلام في شرح شواهد الأشموني، فهو معني بتحليل البيت من خلال حلّ ألفاظه، فإعرابه، فبيان محلّ الشاهد، فالمعنى، فذكر القائل، باذلا الجهد في تصحيح الأنقال التي يوردها، على نحو ما ذكر في رواية البيت المذكور[12].

2-4 شخصيته في الشرح:

أتيح للشيخ عبد السلام السلطاني أن يطّلع على كثير من التراث النحوي، ويبدو أن هذا الاطلاع ساعده على تكوين شخصية علمية متميزة، فكان لا يقبل كل الآراء، بل كان يبدي رأيه في كل ما يعرض من مسائل، مناقشا هذه الآراء بأسلوب علمي، غير متعصب لرأي ولا منحاز لمذهب، يقول مبيّنا منهجه في النقل عن العلماء إنّه قد اعتمد في ذلك على ما كتبه: «الأعلم الشنتمري على أبيات كتاب سيبويه الإمام، وعلى ما قاله أضرابه من القدى والأعلام، جاعلا خطتي في ذلك اطّراح التّقليد، إلا لأيمة شافهوا العرب أو كادوا كالأصمعي وأبي سعيد، والزمخشري وأبي عبيد، والقالي وأبي زيد، وأبي عبيدة والجاحظ وابن دريد.

أولَئِكَ قَومٌ إن بَنَوا أَحسَنوا البُنى وَإن عاهَدوا أَوفَوا وَإن عَقَدوا شَدّوا

أمّا غير أهل هذه الطبقة فسأشاركهم في الأفكار، وأضرب معهم بِسهْمٍ في الأنظار، إذ مرجع جميعنا إلى الاطلاع على كتب الأقدمين ودواوين العرب. وذلك قد يتسنى بكثرةٍ لامرئ دون آخر بَعُدَ زمانه أو اقترب»[13].

3-4 موقفه من الشاهد القرآني:

يرى الشيخ عبد السلام أن الشواهد تشكّل جانبا مهما من النحو، فالنحو هو الشواهد، وهو التطبيق على كلام العرب، وهي موضع استنباط القواعد، إذ يعد الشاهد حجة النحاة في إثبات صحة القاعدة النحوية وتقريرها، أو إجازة ما جاء مخالفا للقياس، والرد على المخالفين وتفنيد رأيهم، وقد كان للاستشهاد بكلام العرب معايير حددها النحاة، إذ ينقل السيوطي عن أبي نصر الفارابي قوله:

ويفرد الشيخ عبد السلام مقدمة فيما يصحّ الاستشهاد به، وهو عنده يتمثّل في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر، وهو ما يقرره السيوطي في «ما ثَبَتَ في كلام مَنْ يُوثق بفصاحته؛ فشَمَل كلام الله تعالى، وهو القرآن، وكلام نبيّه صلى الله عليه وسلم، وكلام العرب، قبل بعثته، وفي زمنه، وبعده، إلى أن فَسَدت الألسنة بكثرة المولّدين، نظما ونثرًا، عن مسلم أو كافر»[14].

ويبيّن الشيخ عبد السلام أن الغرض من الاستشهاد هو توطيد القواعد التي يقررها العلماء، وتصحيح القوانين العامة التي ترجع إليها جزئيات الأحكام، فإذا «قرر الإمام مثلا أن الخبر في باب كان وأخواتها يجوز توسطه احتاج إلى تصحيح هذه القاعدة بإيراد مثل قوله:

سَلِي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عنَّا وعَنْهُم *** فليس سواءٌ عَالِمٌ وجَهُولُ

فكلام العرب إذًا هو المسيطر على القواعد، وبها حاجة إلى أن يصححها، فإنها شبه دعاو تحتاج إلى دليل ولأمرٍ ما سمّى الأئمة ما يوردونه شواهد»[15]، وبذلك يتم حفظ اللسان العربي من الفساد واللحن وتنفع هذه الشواهد من رام تعلّم هذا اللسان ممن لم يكن مطبوعا عليه.

غير أنّه سرعان ما ذهب هذا الغرض بسبب ظهور الطوائف وكثرة الآراء وتشعب الأقاويل، إذ تهدد الاستشهاد بالقرآن الكريم أخطار، حيث «أصبحت قواعد المذاهب مسلّطة على كلام العرب، فترى منتحل رأي يدعوه حبّ الانتصار لمذهبه إلى أن يرغم البيت من الشعر على تخريج لا يتفق مع الظاهر، وربّما استحال أن يقصده قائله»[16]،

وإذا كان الأمر يهون مع الشعر والأمثال، فإنّنا نجد مقام أحد الأئمة في الورع والدّين بالمنزلة التي لا تدرك، ولكنه يتناول آية يقدّر فيها ما يوافق رأيه الذي قرّره، غير آبهٍ إلى كونها تدل على ما قال أو تنافيه.

وقد استشهد الأشموني بكثير من الشواهد من القرآن الكريم، «فقد استشهد بخمس وثمانين آية من القرآن الكريم، وبعض هذه الآيات كررها مرتين وثلاث مرات .. أي أن موضع شواهده القرآنية ما يقرب من ألف موضع»[17].

4-4 موقفه من الاستشهاد بالحديث الشريف:

يصل الشارح (الشيخ عبد السلام) إلى قضية الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف[18]، ويبيّن الخلاف بين الأئمة في ذلك، ويوضّح آراءهم، ففي حين ذهب ابن مالك إلى جواز ذلك، فأكثر من الاستشهاد به في كتبه، أنكر أبو حيان الأندلسي الاستشهاد بالحديث معللا ذلك بأمرين؛ الأول هو عدم احتجاج متقدمي البصريين والكوفيين به، وجواز الرواية بالمعنى، ويرد الشيخ عبد السلام بأنّ المانع الأول مردود بأنه «لا يلزم من عدم احتجاجهم عدم صحة الاستدلال به، وكذا الثاني فإنّ الرواية بالمعنى إنّما كانت في الصدر الأول قبل تدوين الحديث وقبل فساد لهجة العرب، فغاية ذلك تبديل لفظ يحتج به بآخر مثله فلا فرق، أما بعد تدوين الكتب فلا تجوز الرواية بالمعنى ولا يحل تبديل الألفاظ الكريمة»[19].

4-5 موقفه من الاستشهاد بالشعر:

أما فيما يخص الاستشهاد بالشعر، فإنّ الشيخ عبد السلام يورد تقسيم ابن رشيق الذي يرى أن «طبقات الشعراء أربع: جاهلي قديم، ومُخَضْرَمٌ، وهو الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وإسلامي، ومُحْدَث. ثمّ صار المحدثون طبقات: أولى وثانية على التدريج، وهكذا في الهبوط إلى وقتنا هذا»[20]، ومنهم من يعدّ الطبقات ستًّا؛ الطبقة الرابعة المولدون وهم من بعد المتقدمين، والخامسة المحدثون وهم من بعدهم كأبي تمام والبحتري، والسادسة المتأخرون وهم من بعدهم كأبي الطيب المتنبي، فمَنْ بعده.

ويرى الشيخ عبد السلام السلطاني أن الطريقة الأولى هي المثلى إذا ما بَعُد المتقدمين لا يجوز الاستدلال بكلامهم فهم طبقة واحدة ولا فائدة تنجم عن تقسيمهم، «فالجاهليون هم مَن ماتوا في الجاهلية كامرئ القيس وطرفة والنابغة، والمخضرمون هم الذين أدركوا الجاهلية والإسلام كلبيد وحسّان والنابغة الجعدي والنمر بن تولب، والإسلاميون ويقال لهم المتقدمون هم الذين كانوا في صدر الإسلام كجرير والفرزدق ونصيب وجميل وعمر بن أبي ربيعة، والمحدثون ويقال لهم المولدون كوالبة بن الحباب وتلميذه أبي نواس وأبي العتاهية، فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعا، وكذا الثالثة على الصحيح»[21]. يصف عمرو بن العلاء (68هـ-154هـ) شعر الإسلاميين بالمولد، والمحدث الذي لا يحتج به لمعاصرته له، ويقول: «لقد أحسن هذا المولد حتى لقد هممت أن آمر صبياننا بروايته، يعني بذلك شعر جرير والفرزدق، فجعله مولدًا بالإضافة إلى شعر الجاهلية والمخضرمين، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين»[22].

وكان أبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن أبي إسحاق والحسن البصري وعبد الله بن شبرمة يلحنون الفرزدق والكميت وذا الرمة وغيرهم، ويعدّونهم ممن سرت إليهم هجنة العجمة لكن الجمهور على اعتبارهم حججا، قال الفراء: «حدّثني أبو جعفر الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء، قال: مرَّ الفرزدقُ بعبد الله بن أبي إسحاق النحوي فأنشده هذه القصيدة: عَزَفْتَ بأعشَاش وَمَا كِدتَ تَعزِفُ

حتى انتهى إلى هذا البيت:

وَعَضُّ زَمانٍ يا ابنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ مِنَ المالِ إلاّ مُسحَتاً أوْ مُجَرَّفُ [23]

فقال عبد الله: علام رفعت مجلّف؟ فقال له الفرزدق: على ما يسوءك»[24]

ووُصف هذا البيت بأنّه صعب الإعراب. قال الزمخشري: «هذا بيتٌ لا تزال الرُّكَبُ تصطكُّ في تسوية إعرابه. وقال ابن قتيبة (في كتاب): رفع الفرزدق آخر البيت ضرورة، وأتعب أهل الإعراب في طلب الحيلة، فقالوا وأكثروا ولم يأتوا فيه بشيء يُرتضى»[25].

ويرى الشيخ عبد السلام أن الصحيح أن لا يستشهد بكلام شعراء الطبقة الرابعة مطلقا، فقد نقل ثعلب عن الأصمعي، قال: «خُتِمَ الشّعرُ بإبراهيم بن هَرْمَة، وهو آخر الحُجَج»[26]. وإن كان الزمخشري أجاز أن يستشهد بكلام من يوثق به منهم، فقد استشهد في تفسير أوائل البقرة من الكشاف ببيت من شعر أبي تمام، وقال: «وهو وإن كان محدثًا لا يُستشهد بشعره، فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه الحماسة، فيقتنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه»[27].

من هنا يعترض الشيخ عبد السلام على الأشموني فيما يورده من شعر المتنبي وأبي نواس والشريف المرتضى وغيرهم، ويميل إلى رأي التفتازاني في جواز الاستشهاد إن استؤنس به ولم يجعل دليلا.

وينبّه الشيخ عبد السلام إلى أنّه وقع الاتفاق أنّ «الشاهد المجهول قائله أو تَتِمَته، إن صدر من ثقة يُعتمد عليه قبل وإلا فلا، ولهذا كانت أبيات سيبويه أصحّ الشواهد اعتمد عليها خلف بعد سلف مع أنّ فيها خمسين بيتًا جُهل قائلوها وما عيب بها ناقلوها»[28]، وقد جعل الشيخ عبد السلام التنبيه على ذلك عوضا من ذكر القائل.

5- الإشادة بالشرح:

كتب الإمام عبد الحميد بن باديس منوّها بالكتاب صبيحة الثلاثاء التاسع والعشرين من شهر ربيع الثاني عام تسع وأربعين وثلاثمائة وألف للهجرة، فقال:«فقد ناولني العالم الفاضل المشارك المحقق الأخ في الله تعالى الشيخ سيدي عبد السلام السلطاني أدام الله النفع به، كتابه الذي أسماه "فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك على ألفية ابن مالك: فوجدته كتابًا جمع فأوعى، واستكمل الحسن مادة وَوَضْعًا، نقل فيه معاني المفردات اللغوية من أمهاتها، (...) وعرض ما نقل على محك التحقيق وحكم برهانه سالكا في بحثه ومناقشته مسلك الإنصاف (...) فجاء الكتاب بذلك حجة في العربية ومثالا يحتذى في طريقة البحث والتأليف قد استوفى المقصود من شرح الشواهد وجمع من اللغة والنحو والصرف والأدب شتّى الأصول وجمّ الفوائد يجمع قارئه من لغة العرب بين العلم والتطبيق ..

فجزى الله تعالى هذا الأخ المؤلف أحسن الجزاء على خدمته لغة القرآن الكريم وتسهيله هذا الطريق السوي من طرق التعلم والتعليم»[29].

6- الخاتمة:

تناولنا في هذا البحث شرح عبد السلام السلطاني شواهد الأشموني، وقد خرجت هذه الدراسة بنتائج منها:

- يعد الشيخ عبد السلام السلطاني واحدا من علماء الجزائر الذي أبان عن ثقافة لغوية غزيرة.
- إن شرح الأشموني لألفية ابن مالك وحشده للشواهد الكثيرة والمتنوعة كانت الدافع الأساسي للشيخ عبد السلام لكتابة هذا الشرح.
- تقيّد الشيخ عبد السلام في شرحه تقيّدًا تاما بالشواهد والموضوعات الواردة في شرح الأشموني، محافظًا على تبويب الأشموني للمادة العلمية.
- تبدو شخصية الشيخ عبد السلام شخصية علمية متميزة، فهو لا يتعصب لرأي ولا ينحاز لمذهب.
- يعترض الشيخ عبد السلام على الأشموني فيما يورده من شعر المتنبي وأبي نواس والشريف المرتضى وغيرهم، لأنهم من الطبقة الرابعة التي لا يصح الاستشهاد بكلامها.
- احتوى شرحه على كثير من الآراء مما جعل شرحه موسوعة جامعة لآراء النحاة.
- نوّه كثير من العلماء كالطاهر بن عاشور، والإمام عبد الحميد بن باديس بالشيخ عبد السلام.

المصادر والمراجع:

الأشموني، أبو الحسن نور الدين علي بن محمد، 1358هـ/1939م، ط2، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى "منهج السالك إلى ألفية ابن مالك"، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر.

البغدادي، عبد القادر بن عمر، 1404هـ – 1984م، ط2، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض، مصر–السعودية.

خديجة الحديثي، 1981م، موقف النحاة من الاستشهاد بالحديث، دار الرشيد للنشر، العراق.

ابن رشيق، أبو علي الحسن، 1401هـ/ 1981م، ط 5، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان.

الزمخشري، أبو القاسم جار الله محمود بن عمر، 1418هـ/1998م، ط1، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية.

السلطاني الجزائري، عبد السلام بن عبد الرحمن، 1347هـ / 1929م، شرح شواهد الأشموني المسمى فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك، المطبعة الأهلية، تونس.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، 1426هـ/2006م، الاقتراح في علم أصول النحو، قرأه وعلق عليه محمود جمال سليمان، دار المعرفة الجامعية، مصر.

الطنطاوي، محمد،1995م، ط2، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، مصر.

الطويل، محمد عبد المجيد، 1406هـ/1986م، الأشموني وكتابه منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، مكتبة النهضة المصرية، مصر.

الهادي حسني، محمد، ترجمة الشيخ عبد السلام السلطاني، موقع المكتبة الجزائرية الشاملة، بتاريخ 2023/06/22 الرابط: https://shamela-dz.net/?p=635

الهوامش والإحالات:

[1] محمد الهادي الحسني، ترجمة الشيخ عبد السلام السلطاني، موقع المكتبة الجزائرية الشاملة، بتاريخ 2023/06/22 الرابط: https://shamela-dz.net/?p=635

[2] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني المسمى فتح المالك في شرح شواهد منهج السالك، المطبعة الأهلية، تونس، 1347هـ / 1929م، ج1، ص5.

[3] ويروى البيت كذلك: وَيُسيءُ بِالإحسانِ ظَنّاً لا كَمَن *** هُوَ بِابنِهِ وَبِشِعرِهِ مَفْتُونُ

ينظر: أبو تمام، الديوان بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط 4، 331/3.

[4] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص3.

[5] المصدر نفسه، ج1/ص4.

[6] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[7] المصدر نفسه، ج1/ص 3.

[8] محمد الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1995م، ص294.

[9] الدعوة الجَفَلَى: الدعوة العامة التي لا يخص بها جماعة دون جماعة، فإن خصّ فهي النقرى. ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، استانبول، تركية، 1989م، ص 128.

[10] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص4-5.

[11] المصدر نفسه، ج2/ص67-68.

[12] ينظر: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك المسمى "منهج السالك إلى ألفية ابن مالك"، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1358هـ/1939م، 2/ 457-458. ويروى البيت: وهل الدَّهرُ إلّا لَيلَةٌ وَنَهارُها وَإلّا طُلوعُ الشَّمسِ ثُمَّ غِيارُها

ينظر: شرح أشعار الهذليين صنعة أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، تحقيق: عبد الستار أحمد فرّاج، مكتبة دار العروبة، القاهرة، 1965هـ، 70/1. وديوان الهذليين، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ/1954م، 21/1.

[13] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص4.

[14] السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، قرأه وعلق عليه محمود جمال سليمان، دار المعرفة الجامعية، 1426هـ/2006م، ص74.

[15] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص6.

[16] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[17] محمد عبد المجيد الطويل، الأشموني وكتابه منهج السالك إلى ألفية ابن مالك، مكتبة النهضة المصرية، 1406هـ/1986م، ص75.

[18] هذه القضية تمتد جذورها إلى ابن الضائع الأندلسي (ت. 680هـ)، وأبي حيان الأندلسي (ت. 745هـ)، حيث نسبا إلى الأوائل ترك الاحتجاج بالحديث، على حسب ما تنبّها إليه في أثناء شرحهما كتب ابن خروف وكتب ابن مالك، ينظر: الاقتراح في علم أصول النحو، قرأه وعلق عليه محمود جمال سليمان، ص89. وموقف النحاة من الاستشهاد بالحديث، الدكتورة خديجة الحديثي، دار الرشيد للنشر، العراق، 1981، ص 6.

[19] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص6.

[20] ابن رشيق، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط 5، 1401هـ / 1981م، ج1/ص113.

[21] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص11.

[22] ابن رشيق، العمدة، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5، ج1/ص90.

[23] الفرزدق، الديوان، دار بيروت للطباعة والنشر، 1404هـ – 1984م، 26/2.

المسحت: بصيغة اسم المفعول الفاني المضمحل (الذي لم يبق منه بقية). المجلّف: الذي ذهب معظمه وبقي منه شيء يسير.

[24] الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القهرة، 182/2.

[25] البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ودار الرفاعي، الرياض، ط 2، 1404هـ – 1984م، 145/2.

[26] السيوطي، الاقتراح في علم أصول النحو، قرأه وعلق عليه محمود جمال سليمان، ص148.

[27] الزمخشري، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، مكتبة العبيكان، الرياض، السعودية، ط1، 1418هـ/1998م، ص 207-208.

[28] الفراء، معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القهرة، 182/2.

[29] عبد السلام السلطاني، شرح شواهد الأشموني، ج1/ص14.